مجلة أبحاث في العلوم التربوية والإنسانية والآداب واللغات، المجلد 02 العدد 05 بتاريخ 2021/06/15م

ISSN: 2708-4663 DNNLD :2020-3/1128

ظاهرة التّكرار في قصيدة "إلى الموت" لأبي القاسم الشابي

د .رفيقة النجار

أستاذة أولى مميزة للتعليم الثانوي، دكتورة في اللغة والآداب العربية، وعضو بمخبر البحث" تحليل الخطاب "بجامعة منوبة، تونس.

rafika.najjar@gmail.com

تاريخ الإيداع: 2021/06/02 م تاريخ التحكيم: 2021/06/09م تاريخ النشر: 2021/06/15م

الملخص بالعربية:

وجّه الموت الكتابة الأدبيّة العربيّة منذ العصر الجاهليّ وخاصّة الشّعر، فمن الأغراض الشّعريّة ما كان نتاجا لموضوع الموت، إذ الرّثاء هو تفجّع على الميت وتخليد لمناقبه، والفخر في جانب كبير منه هو الفخر بالانتصار على الموت، والمدح هو أيضا في العديد من القصائد مدح الممدوح لقدرته على هزم الموت...

نهتمّ في هذا المقال بظاهرة التّكرار في قصيدة أبي القاسم الشابي " إلى الموت ". تضمّنت القصيدة تكرارا دالّا على الضّعف والعجز في حياة مليئة بالشّرور والآلام فتدفع الشابي إلى التّشاؤم ورفض الواقع، وسرعان ما نتفاجأ بتكرار آخر دالّ على القوّة والفرح والتّفاؤل يتجلّى بوضوح في حديث الشابي عن الموت ذلك العالم الغامض المنشود الذي يرى فيه الشابي سبيل الخلاص من الحياة التي يرفضها. وقد بنى الشابي قصيدته على هذه الثّنائية الطّريفة المبتكرة التي تتلخّص في ثنائيّة الحياة والموت.

الكلمات المفتاحية.: التكرار– التأكيد – الموت – الرّومنطيقيّة– أبو القاسم الشابي

The frequency in Abu al-Qasim al-Shabbi's poem "To Death".

Dr. Rafika Najjar, secondary school teacher, member of laboratory: *discourse analysis*, university of Manouba, Tunisia

Abstract :

As we know, death has directed Arabic literary writing since the pre-Islamic period, especially poetry. As a result of the theme of death, many poetic purposes has emerged. Lamentation is mourning for the dead and an immortalization of its virtues. Pride in a large part is pride in victory over death. And the praide is also in many poems the praide of the one who is praised for his ability to defeat death.

this article examines the frequency effects in Abu al-Qasim al-Shabbi's poem "To Death".

The poem included a frequency that indicates weakness and impotence in a life full of evils and pains, which pushes al-Shabbi into pessimism and rejection of

ISSN: 2708-4663 DNNLD :2020-3/1128

reality. However, we are surprised by another frequency of strength, joy and optimism that is clearly evident in Al-Shabbi's comments about death, that mysterious desired world in which Al-Shabbi sees the way to salvation from the life he rejects.

Al-Shabbi articulated his poem on this innovative duo that is summarized in the duality of life and death.

Keywords:
Frequency – Affirmation – Death – Romantic - Abou Al Qasim Al Shabbi

مقدمة

لا شكّ أنّ الموت مشغل من أهمّ مشاغل الإنسان على مرّ التّاريخ، وهذا ما جعله موضوعا مهمّا في مختلف الثّقافات الإنسانيّة، وقد انعكس ذلك على الإنتاج الفكريّ بمختلف تجلّياته من فنّ وأدب وفلسفة وغيرها. في الأدب تمّ تناول موضوع الموت من جهة كونه خصما متربّصا بالإنسان، فالموت في الثّقافة الإنسانيّة عموما وفي الأدب العربيّ بصفة خاصّة هو ذلك العدوّ الذي يباغت الإنسان فيحرمه من الحياة، ويحرم أحبّاءه منه، وهذا ما جعل العرب يكنّون عنه ب: " هادم اللذات ومفرّق الجماعات " والتصقت هذه الكناية بالموت في المخيال الثّقافي العربي على مرّ العصور. وقد وجّه الموت الكتابة الأدبيّة العربيّة منذ العصر الجاهليّ وخاصّة الشّعر، فمن الأغراض الشّعريّة ما كان نتاجا لموضوع الموت، إذ الرّثاء هو تفجّع على الميت وتخليد لمناقبه، والفخر في جانب كبير منه هو الفخر بالانتصار على الموت، والمدح هو أيضا في العديد من القصائد مدح الممدوح لقدرته على هزم الموت... ويمكن أن نستحضر هنا على سبيل الذّكر لا الحصر بعض الأدباء الذين تحدّثوا عن الموت من هذه الزّاوية: الخنساء[1] وطرفة بن العبد وعنترة بن شدّاد[2] وزهير بن أبي سلمى[3].

ولم تختلف نظرة الشّعراء بعد الإسلام إلى الموت اختلافا كبيرا، ونستدلّ هنا بنظرة الشّعراء المجدّدين في القرن الثّاني الهجري، فقد رأى أبو نواس أنّ الإنسان يمكنه أن يواجه الموت بالانغماس في الملذّات في حين دعا أبو العتاهية إلى الزّهد والتّزوّد لما بعد الموت، وفي مذهب كلّ منهما خوف من الموت وجّه الكتابة وجهة معيّنة ميّزت شعر صاحبها، ولئن كان المذهبان على طرفي نقيض إلاّ أنّ المنطلق واحد وهو الموقف من الحياة والموت[4].

وقد تغيّرت النّظرة إلى الموت في الأدب العربي الحديث في العديد من الكتابات وخاصّة منها الشّعريّة، وتحديدا الشّعر الرّومنطيقي الذي تمّ فيه تناول موضوع الموت برؤية طريفة فيها خروج عن النّظرة

ISSN: 2708-4663 DNNLD :2020-3/1128

التّقليديّة للموت، فقد رأى الشّعراء الرّومنطيقيّون في العديد من قصائدهم أنّ الموت منطلق حياة أفضل تتّسم بالحقّ والخير والجمال وتتنزّه عن عالم الإنسان المليء بالشّرور[5]، ويُعدّ أبو القاسم الشّابّي من الشّعراء الرّومنطيقيّين الذين اختلفت نظرتهم إلى الموت في الكثير من قصائدهم عن نظرة الشّعراء القدامى، ومن بين قصائد الشّابي التي تناول فيها الموت من زاوية أخرى انحرفت به عن معانيه الدّلاليّة التّقليديّة المتوارثة، قصيدة " إلى الموت "[6] وهي قصيدة عموديّة منظومة على بحر المتقارب ومتنوّعة الرّويّ، كتبها أبو االقاسم الشّابي سنة 1928 قبل أن يُفْجَع بوفاة والده التي غيّرت نظرته إلى الموت.

إنّ الموت هو المحور الذي دارت حوله معاني القصيدة، وبدت نظرة الشابي إلى الموت نظرة طريفة فيها انزياح أخرج الموت من معانيه الدّلاليّة التّقليديّة المتوارثة، فقد ارتبط في هذه القصيدة بكلّ ما هو إيجابي، إذ هو في نظر الشابي منطلق حياة أفضل ترتقي بالإنسان من عالم سلبيّ مدنّس مليء بالشّرور إلى عالم إيجابيّ مقدّس هو عالم الحقّ والخير والجمال. وقد اعتمد الشّابّي التّكرار وسيلة لإبلاغ معاني القصيدة.

لم يكن التّكرار في هذه القصيدة مجرّد ضرورة إيقاعيّة قامت على ترديد اللّفظ لإحداث إيقاع داخليّ، أو جوازا شعريّا من أجل التّقفية والالتزام ببحر القصيدة، بل تجاوز التّكرار الإيقاع والجواز الشّعريّ ليكون وسيلة تأكيد توخّاها الشّابي للإبلاغ والإقناع، فالتّكرار هو وسيلة لغويّة وأسلوبيّة تُستخدم للتّأكيد والتّذكير وبيان المبالغة، وقد اهتمّ به اللغويّون القدامى من زاوية التّوكيد اللّفظي، فقد جاء في كتاب سيبويه:

<< وتقول أنت أنت، تكرّرها... وعلى هذا الحدّ تقول: قد جُرّبتَ فكُنتَ كُنتَ إذا كرّرتها توكيدا>>[7].

وتبلور الاهتمام بالتّكرار مع الجاحظ وبمصطلح "التّرداد":

<<وجملة القول في التّرداد أنه ليس فيه حدّ ينتهي اليه ولا يؤتى على وصفه، وانّما ذلك على قدر المستمعين، ومن يحضره من العوامّ والخواصّ...[8]>>.

ثمّ بيّن ابن جنّي أنّ التّكرار يفيد التّوكيد وهو نوعان لفظيّ ومعنويّ:

<< العرب إذا أرادت المعنى مكّنته واحتاطت له، فمن ذلك التّوكيد، وهو على ضربين، أحدهما: تكرير الأول بلفظه، وأما الضّرب الثّاني، فهو تكرار الأوّل بمعناه.>> [9].

ISSN: 2708-4663 DNNLD :2020-3/1128

ويتمثّل الفرق بين التّكرار اللّفظيّ والتّكرار المعنويّ في كون التّكرار اللّفظيّ هو تكرار اللّفظ مع الاتّفاق في المعنى (تكرار اللفظ بلفظه ومعناه) أو تكرار اللفظ والاختلاف في المعنى (الجناس)، أمّا التّكرار المعنويّ فيتمثّل في تكرار المعنى مع اختلاف الألفاظ (التّرادف، الحقل المعجمي).

وقد اهتمّت الدّراسات اللسانيّة الحديثة كذلك بالتّكرار من ذلك مثلا تعريف عبد السلام المسدّي للتّكرار:<< تواتر حرف أو كلمة أو خاصية أسلوبيّة هو نسبة تكرّرها سواء إلى وحدة الزمن في بثّ شفويّ أو إلى مدى كمّيّ كتواترها في نصّ أو كتاب أو نسبتها إلى مُجانسها في سياق ما>>.[10]

ولم يقف دور التّكرار في قصيدة الشابي عند التّأكيد والإيقاع بل كان داعيا المخاطب إلى مشاركة الشاعر في تمجيد الموت ومصوّرا للحالة النّفسيّة، فالغاية من استخدام اللغة كما بيّن خالد ميلاد هي التّواصل مع المخاطب والتعبير عن المقاصد والأغراض[11]:

<<.. وليس التّعامل بين المتخاطبين سوى تعامل تحكمه الأغراض والمقاصد االتي لا تعدو أن تكون المعاني، وليست البلاغة سوى حسن استخدام اللغة لإصابة المقاصد والأغراض>>.

وقد ذكر عبد السلام المسدّي نقلا عن شارل بالي أنّ اللغة حاملة لوجهين: وجه فكريّ ووجه نفسيّ:

<< فاللغة في الواقع تكشف في كلّ مظاهرها وجها فكريّا ووجها عاطفيّا، ويتفاوت الوجهان كثافةً حسب ما للمتكلّم من استعداد فطريّ وحسب وسطه الاجتماعيّ والحالة التي يكون فيها[12].>>

وهذان الوجهان: الفكريّ والعاطفيّ، جعلا الأسلوبيّين يهتمّون بحضورهما في الخطاب الأدبيّ، ودورهما في جعله خطابا يرتقي من مستوى الخطاب العاديّ المتداول إلى مستوى الإبداع الفنّيّ بما يتوفّر فيه من مكوّنات لغويّة وفكريّة تكشف عن شخصيّة الكاتب بكلّ ما فيها من انفعالات وعن علاقته بواقعه. والتّكرار باعتباره أسلوبا لغويّا يتّخذه شأنه شأن الأساليب اللّغويّة وظيفة الإبلاغ والتّواصل ووظيفة التّعبير عن الانفعالات النّفسيّة، وقد حضر في قصيدة "إلى الموت" بنوعيه: اللّفظي والمعنوي، وقد ارتبطا خاصّة بمفهومي الحياة والموت.

1 . التّكرار اللّفظي:

تكرّرت كلمة "الموت" بلفظها ومعناها في قصيدة "إلى الموت" 16 مرّة (مرّة في العنوان و 15 مرّة في القصيدة) توزّعت على الأبيات التّالية:

ISSN: 2708-4663 DNNLD :2020-3/1128

البيت	ترتيبه في القصيدة	الصّفحة
إلَى المَوْتِ إنْ شِئْتَ هَوْنَ الحَيَاةِ فَخَلْفَ ظَلاَمِ الرَّدَى مَا تُرِيدْ	4	111
إلَى المَوْتِ يَا ابْنَ الحَيَاةِ التَّعِيسَ فَفِي المَوْتِ صَوْتُ الحَيَاةِ الرَّحِيمْ	5	111
إلَى المَوْتِ إنْ عذّبتكَ الدّهُورُ ففي الموتِ قلبُ الدّهُورِ الرَّحيمْ	6	111
إلى المَوْتِ فالموتُ روحٌ جميلٌ يُرفرِفُ من فوقِ تلكَ الغُيُومْ	7	112
إلى الموتِ فالموتُ جامٌ رويٌّ لِمَنْ أضْمَأَتْهُ سُمُومُ الفَلاَةْ	9	112
إلى المَوْتِ فالمَوْتُ مَهْدٌ وَثِيرٌ تَنَامُ بِأحْضَانِهِ الكَائنَاتْ	12	112
إلى المَوْتِ إنْ حَاصَرَتْكَ الخُطُوبُ وَسَدَّتْ عَلَيْكَ سَبيلَ السَّلاَمْ	13	112
ففي عَالَمِ المَوْتِ تَنْضُو الحَياةُ رِدَاءَ الأسَى وقِنَاعَ الظّلاَمْ	14	112
إلى المَوْتِ لا تَخْشَ أعْمَاقَهُ ففيهَا ضِياءُ السّماءِ الوَدِيعْ	17	112
هو المَوْتُ طَيْفُ الخُلُودِ الجَمِيلِ ونِصْفُ الحَيَاةِ الذي لا يَنُوحْ	21	113

نلاحظ أنّ كلمة الموت تكرّرت 16 مرّة تتوزّع كما يلي: "إلى الموت" x 9 (العنوان، الأبيات: 4، 5، 6، 7، 9، 12، 13، 17)، "في الموت" x 2 (البيتان 5 و6)، فالموت x 3 (الأبيات 7، 9، 12)، "في عالم الموت" (البيت 14)، "هو الموت" (البيت 21). وقد أحدث هذا التّكرار إيقاعا داخليّا في القصيدة كشف عن رغبة في ترسيخ الفكرة في ذهن المخاطب وعدم الاكتفاء بالتّعبير والإبلاغ، فتكرار كلمة الموت 16 مرّة في قصيدة تتكوّن من 24 بيتا يؤكّد أنّ التّكرار وظيفيّ فقد استخدمه الشّابي لتمجيد الموت والدّعوة إلى استعجاله أملا في ولوج عالم أفضل، وفي المقابل تكرّرت كلمة "الحياة" 9 مرّات توزّعت على الأبيات: 1، 2، 4، 5 (x 2)، 11، 14، 21، 24. وهذا التّفاوت بين تكرار كلمة

ISSN: 2708-4663 DNNLD :2020-3/1128

"الموت" وتكرار كلمة "الحياة" يبرّره حرص الشابي على المبالغة في الإعلاء من قيمة الموت و الحطّ من قيمة الحياة وذلك لحثّ المخاطب على استعجال الموت وتنفيره من الحياة.

وقد تجلّى تكرار كلمة "الموت" في تكرار تركيبيّ ومعنويّ، وكان أهمّه تكرار تركيب الجرّ "إلى الموت " الذي أحدث موازنة تركيبيّة عموديّة داخل القصيدة امتدّت على الأبيات: 4، 5، 6، 7، 9، 12، 13، 17:

إلَى المَوْتِ إنْ شِئْتَ هَوْنَ الحَيَاةِ فَخَلْفَ ظَلاَمِ الرَّدَى مَا تُرِيدْ
إلَى المَوْتِ يَا ابْنَ الحَيَاةِ التَّعِيسَ فَفِي المَوْتِ صَوْتُ الحَيَاةِ الرَّحِيمْ
إلَى المَوْتِ إنْ عذّبتكَ الدّهُورُ ففي الموتِ قلبُ الدّهُورِ الرَّحيمْ
إلى المَوْتِ فالموتُ روحٌ جميلٌ يُرفرِفُ من فوقِ تلكَ الغُيُومْ
إلى الموتِ فالموتُ جامٌ رويٌّ لِمَنْ أضْمَأَتْهُ سُمُومُ الفَلاَةْ
إلى المَوْتِ فالمَوْتُ مَهْدٌ وَثِيرٌ تَنَامُ بِأحْضَانِهِ الكَائنَاتْ
إلى المَوْتِ إنْ حَاصَرَتْكَ الخُطُوبُ وَسَدَّتْ عَلَيْكَ سَبيلَ السَّلاَمْ
إلى المَوْتِ لا تَخْشَ أعْمَاقَهُ ففيهَا ضِياءُ السّماءِ الوديعْ

وتركيب الجرّ "إلى الموت" جملة أمر مختزلة اعتمدها الشابي في موازنة تركيبيّة للإقناع بقيمة الموت وارتباطه بما هو إيجابيّ والحثّ على استعجال الموت. ويمكن تأويل هذه الجملة المختزلة بجمل أمر تامّة:

هيّا إلى الموت / سرْ إلى الموت / توجّه إلى الموت...

وهذا الأمر الذي أفاد النّصح والحثّ استخدمه الشّابي في كلّ مرّة بتعليل النّصح والحثّ فتواتر التّركيب: "إلى الموت ... فَ ..." في الأبيات ، 5، 6، 7، 9، 12، 17، فالموت هو الإطار الذي يحتضن الإنسان ويوفّر له الرّاحة المادّية والمعنويّة:

إلَى المَوْتِ يَا ابْنَ الحَيَاةِ التَّعِيسَ فَفِي المَوْتِ صَوْتُ الحَيَاةِ الرَّحِيمْ
إلَى المَوْتِ إنْ عذّبتكَ الدّهُورُ ففي الموتِ قلبُ الدّهُورِ الرَّحيمْ
إلى المَوْتِ لا تَخْشَ أعْمَاقَهُ ففيهَا ضِياءُ السّماءِ الوديعْ

في هذه الأبيات (5، 6، 17) برّر الشابي الدعوة إلى الموت بكونه الإطار الذي يوفّر للإنسان التّعيس حياة أفضل وقلبا رحيما وفضاء يتّسم بالضّياء والجمال.

ISSN: 2708-4663 DNNLD :2020-3/1128

وقد تكرّر التّركيب: "إلى الموت... فالموت..." ثلاث مرّات (الأبيات 7، 9، 12 من القصيدة) وذلك لحاجة الشابي الملحّة إلى تعليل طلب الإقبال على الموت تعليلا يصل به إلى إقناع المخاطب، ويمكن تأويل التّعليل بكونه جوابا لجملة الأمر المختزلة "إلى الموت"، فالبيت السّابع:

إلى المَوْتِ فالموتُ روحٌ جميلٌ يُرفرِفُ من فوقِ تلكَ الغُيُومْ

يمكن تأويله بالقول: هيّا إلى الموت تتمتّعْ بروح جميل يرفرف فوق تلك الغيوم.

والبيت التّاسع:

إلى الموتِ فالموتُ جامٌ رويٌّ لِمَنْ أضْمَأَتْهُ سُمُومُ الفَلاَةْ

يمكن تأويله بالقول: هيّا إلى الموت يا من أضمأتك سموم الحياة تنعَمْ بجام رويّ.

وكذلك البيت الثّاني عشر من القصيدة:

إلى المَوْتِ فالمَوْتُ مَهْدٌ وَثِيرٌ تَنَامُ بِأحْضَانِهِ الكَائِنَاتْ

يمكن تأويله بالقول:

هيّا إلى الموت تنعَمْ بمهد وثير تنام بأحضانه الكائنات.

وهذه الأبيات الثّلاث كشفت عن نظرة الشّابي إلى الموت ومحاولته إقناع المخاطب بها، وهي أبيات تلخّص معاني القصيدة، فالموت في نظر الشّابي يحقّق الرّاحة النّفسيّة والمادية، وهو روح جميل يتواصل معه الإنسان بعد موته فيروي ضمأه إلى الخير والجمال يخلّصه من العالم المليء بالشّرور.

ما يمكن أن نستخلصه من التّكرار الذي تعلّق بكلمة "الموت" بمختلف التّراكيب التي تواترت فيها هذه الكلمة[13] هو ربط الموت بما هو إيجابي فالموت مخفّف من وطأة الحياة (الأبيات 4، 6، 14)، والموت حياة أخرى أرقى من الحياة التي يعيشها الإنسان قبل موته، والموت هو حياة أخرى لا حزن فيها، بل إنّ الموت في نظر الشّابي هو الحياة الحقيقيّة الخالدة (البيتان 5، 21)، والموت هوغذاء للرّوح والجسد (الأبيات 7، 9، 12)، والموت عالم من الغموض والجمال (البيت 17).

وقد كشف التّكرار اللّفظي عن مبالغة الشابي في الانخراط في التيار الرّومنطيقي الذي يرى أنّ الموت منطلق حياة غامضة لكنّها حتما أفضل من الحياة التي يعيشها الإنسان قبل الموت، وهذا الإعلاء من قيمة الموت صاحبه بالتّوازي حطّ من قيمة الحياة ، فالصّعود والرّقيّ الذي أسنده الشابي إلى الموت قابله نزول وتدنّ أسنده إلى الحياة بصفة مبالغ فيها، ويظهر ذلك في تكرار كلمة "الحياة"، ولئن كان تكرارا

ISSN: 2708-4663 DNNLD :2020-3/1128

أقلّ من تكرار كلمة "الموت" ، كما ذكرنا، (تكرار كلمة "الموت" 16 مرّة في مقابل تكرار كلمة "الحياة" 9 مرّات[14]). والغاية من هذا التّفاوت بين عدد مرّات تكرار الكلمتين هي التّنفير من الحياة.

لقد كان الموت فاعلا مؤثّرا في حركة القصيدة ومعانيها تأثيرا إيجابيّا، في حين بدا تأثير الحياة تاثيرا سلبيّا، فالإنسان "صبيّ الحياة الشّقيّ العنيد" (البيت الأوّل)، و"ابن الحياة التّعيس" (البيت الخامس)، ولا صوت للحياة إلاّ بفنائها وهزم الموت لها، وهذا ما عبّر عنه الشابي في عجز البيت الخامس من القصيدة:

إلى الموت يا ابن الحياة التّعيس ففي الموت صوت الحياة الرّحيم

ولا غذاء للحياة إلاّ الحزن وهو ما جاء في البيت الحادي عشر:

فما الدّمعُ إلاّ شرابُ الدّهور وما الحزنُ إلاّ غذاءُ الحياة

ولا تُلْقي الحياة الأسى والظّلام إلاّ بالموت (البيت الرّابع عشر):

ففي عالم الموت تنضُو الحياةُ رداء الأسى وقناعَ الظّلام

ويرى الشّابي أنّ الحياة التي يحياها الإنسان هي نصف حياة حزين نائح، أمّا نصفها السّعيد فهو الموت (البيت 21):

هو الموتُ طيف الخلود الجميل ونصفُ الحياة الذي لا ينوح

وقد تميّز هذا البيت بثرائه الدّلالي، فالحياة في نظر الشّابي لا تكتمل إلاّ بالموت، ويعتبر الموت نصف الحياة، وهو بذلك يقترح مفهوما جديدا للحياة، فهو يرى أنّها تجمع بين ثنائيّة الحياة والموت، ويرى أنّ الحياة تبثّ الحزن في حين يبثّ الموت السّعادة والأمل في حياة أفضل، ويزداد تمجيد الموت في نسق تصاعديّ إذ بيّن الشّابي في الأبيات الثّلاث الأخيرة من القصيدة أنّ الموت هو الحياة الحقيقيّة:

هنالك خَلْفَ الفَضَاءِ البَعيدِ يَعِيشُ المِئُونُ القَوِيُّ الصَّبُوحْ

يَضُمُّ القُلُوبَ إلى صَدْرِهِ ليأسوَ مَا مَضَّها مِنْ جُروحْ

ويبعثَ فيها رَبيعَ الحَيَاةِ ويُبْهِجُها بالصَّباحِ الفَرُوحْ

وبذلك قدّم الشابي مفهوما طريفا للموت يتمثّل في اعتباره الحياة الحقيقيّة التي تداوي جروح الكائنات وتحملها من عالم الشّرور والآلام والأحزان إلى عالم الحقّ والخير والجمال والفرح.

ISSN: 2708-4663 DNNLD :2020-3/1128

وهكذا نتبيّن أنّ الشّابي بنى قصيدته على ثنائيّة الحياة والموت معتمدا التّكرار أداة إبلاغ وتأثير كشفت عن التّفكير الرّومنطيقي الذي وجّه نظرة الشّابي إلى الحياة والموت وموقفه من كلّ منهما. ولا يقتصر ذلك على التّكرار اللّفظي فقط بل أيضا التّكرار المعنويّ.

2 . التّكرار المعنويّ:

تضمّنت هذه القصيدة إلى جانب التّكرار اللفظي تكرارا معنويّا تعلّق شأنه شأن التّكرار اللّفظي ب "الحياة" و"الموت"، وقد قام التّكرار المعنوي على التّرادف، فإلى جانب التّكرار اللفظي الذي تعلّق بكلمة "الموت" التي تواترت، كما ذكرنا، 16 مرّة، تكرّر معنى الموت أيضا بالتّرادف، فقد عبّر عنه الشّابي بالكلمات التّالية: الرّدى (البيت 4)، الممات (البيت 10)، المنون (البيت 22)، وإذا أخذنا بعين الاعتبار هذا التّرادف فإنّ معنى الموت تكرّر في هذه القصيدة 19 مرّة، وهذا يجعلنا نتساءل لمَ تجنّب الشّابي كلمة "الموت" في ثلاثة مواطن من قصيدته واستعاض عنها بكلمات "الرّدى" و"الممات" و"المنون"؟ هل السّبب ضرورة عروضيّة تتمثّل في الالتزام بتفعيلات بحر المتقارب؟ أم خشية الشابي من ضجر القارئ فقلّص عدد مرّات تكرار كلمة "الموت " إلى 16 عوضا عن 19؟ أم أنّ السّبب بيان وجود فروق دلالية بين هذه الكلمات رغم التّرادف والانتماء إلى نفس الحقل المعجمي؟

بالرّجوع إلى الشّرح المعجمي ومعاني القصيدة للبحث عمّا تفيده الكلمات " الرّدى" "الممات" "المنون" من دلالات تنضاف إلى الدّلالة على السّكون[15] فجعلت الشابي يستخدمها عوض كلمة الموت، وجدنا أنّ هذه الكلمات استخدمت في الأبيات 4 و 10 و22 للدّلالة على الموت بمعناه المعجمي[16]:

إلَى المَوْتِ إنْ شِئْتَ هَوْنَ الحَيَاةِ فَخَلْفَ ظَلاَمِ الرَّدَى مَا تُرِيدْ

ولستَ براوٍ إذا ما ضمئتَ من المَنْبَعِ العَذْبِ قَبْلَ الممَاتْ

هنالك خَلْفَ الفَضَاءِ البَعيدِ يَعِيشُ المَنُونُ القَوِيُّ الصَّبُوحْ

فنحن بقراءة هذه الأبيات ومحاولة التأويل على المستوى المعجمي لا نجد معنى آخر للموت غير معناه المعجمي الأصلي الذي يفيد السّكون وانعدام الحركة باستثناء البيت 22 الذي خصّه الشابي بصورة مبتكرة تتمثّل في المجاز العقليّ في قوله "يعيش المنون القويّ الصّبوح" فإسناد الفعل "يعيش" للمنون مجاز عقليّ الغاية منه الإعلاء من قيمة الموت في تضاد طريف بين الكلمتين "يعيش" و"المنون" يؤكّد به الشابي أنّ الموت هو القوة العظمى التي لا تهزم، أمّا كلمتي " الرّدى " في البيت 4 و"الممات" في البيت 10 فإنّ

ISSN: 2708-4663 DNNLD :2020-3/1128

الغاية من الاستعانة بهما تقتصر على التّنويع في الإيقاع والالتزام بوزن بحر المتقارب (فعولن فعولن فعولن فعولن x 2).

وكذلك لاحظنا حضور التّكرار المعنوي فيما يتعلّق بمعنى الحياة الذي حضر في القصيدة بكلمة " الحياة" 9 مرّات وحضر أيضا بكلمتي "الوجود" في البيت 2 و"الدّهور" في البيتين 6 (x 2) و11 وهنا نتساءل لماذا فضّل الشّابي التّكرار المعنوي على التّكرار اللّفظي؟ ولماذا اختار كلمة الدّهور ولم يختر كلمة الدّهر؟ هل الغاية إحداث إيقاع أم أنّ الغاية هي المبالغة التي تتحقّق بصيغة الجمع؟

تعرّف المعاجم العربيّة "الحياة" بأنّها نقيض الموت[17]، وقد كرّر الشابي كلمة "الحياة" 9 مرّات، وعبّر عنها في مواطن أخرى من قصيدته ب "الوجود" و"الدّهور"، ففي البيت الثّاني من القصيدة:

أَتُنشدُ صوتَ الحَيَاةِ الرخيمَ وأَنتَ سجينٌ بهذا الوجودْ

الغاية من الاستعاضة عن كلمة "الحياة" بكلمة الوجود غاية عروضيّة لأنّ وزن البحر والقافية لا يستقيمان إذا ما استخدم كلمة "الحياة" فكرّر معنى "الحياة" بكلمة مرادفة هي " الوجود"[18]

أمّا في البيتين 6 و11 فقد استبدل كلمة "الحياة" بكلمة " الدّهور":

إلَى المَوْتِ إنْ عذّبتكَ الدّهُورُ ففي الموتِ قلبُ الدّهُورِ الرَّحيمْ

فما الدَّمعُ إلاَّ شرابُ الدُّهورِ وما الحزنُ إلاَّ غِذَاءُ الحَيَاةْ

لاحظنا في هذين البيتين أنّ الشابي إلى جانب استغنائه عن كلمة "الحياة" لم يستخدم كلمة "الدّهر" بصيغة المفرد بل استخدم صيغة الجمع " الدّهور"، كان يمكن أن يكتفي الشابي بكلمة " الدّهر" فيستجيب المعنى[19] ويستقيم وزن البحر الشعري إلاّ أنّ حرصه على المبالغة هو الذي يجعله يعتمد صيغة الجمع.

لقد كشف التّكرار المعنوي عن نفس قلقة ترفض الحياة وترى في الموت عالما مغريا بالإقبال عليه. لذلك يمكن القول إنّ حرص الشابي على إبلاغ هذه الفكرة الخارجة عن النّظرة التّقليديّة للموت هو الذي جعله يعتمد التّكرار أداة للإبلاغ والتّأكيد.

إنّ نظرة الشّابي إلى الحياة والموت اتّسمت في هذه القصيدة بازدراء الحياة والنّفور منها في مقابل تمجيد الموت ، وإذا ما ربطنا هذه القصيدة بتاريخ كتابتها وهو سنة 1928 قبل أن يُفجع بوفاة أبيه التي غيّرت نظرته إلى الموت، فقد كشفت قصائده التي كتبها إثر تغييب الموت لوالده عن نفسيّة قلقة مضطربة تتّخذ من الكتابة مجالا رحبا للتّنفيس من حالة الحزن والإفصاح عن مختلف الانفعالات النّفسيّة، وقد

ISSN: 2708-4663 DNNLD :2020-3/1128

جمعت تلك الفترة الزّمنية بين فقدان الأب واشتداد وطأة داء القلب فغيّر هذان العاملان من نظرته إلى الموت فتحوّلت من تمجيد الموت إلى اعتباره عدوّا حرمه والده، وبذلك يمكن القول أنّ الشّابي انخرط ضمن الرّؤية الرّومنطيقيّة التي كثيرا ما تقدّم الموت في صورة طريفة مغايرة لصورة الموت التّقليديّة التي وردت في الأدب العربي القديم إلاّ أنّه عندما تعلّق الأمر بتجربته الذّاتية مع الموت عاد إلى نقطة البداية وهي نظرة الأدباء العرب القدامى إلى الموت. وخير مثال على ذلك قصيدة " يا موت " المنظومة على مجزوء الكامل، والتي رثا بها الشابي والده[20] وقد اتّسمت بقوّة التّعبير والكشف عن البعد الذّاتي الطّاغي على القصيدة، وقد تناول فيها موضوع الموت من زاويتين: الأولى زاوية الشابي باعتباره ضحيّة الموت، والثّانية من زاوية "الموت" باعتباره خصما معاديا للشابي، ونذكر منها هذه الأبيات:

يا مَوْتُ قَدْ مَزَّقْتَ صَدْرِي وقَصَمْتَ بالأَرْزَاءِ ظَهْرِي
ورَمَيْتَنِي مِنْ حَالقٍ وسَخِرْتَ مِنّي أيّ سُخْرِ
فلبثْتُ مرضوضَ الفُؤادِ أجُرُّ أجْنِحَتِي بذُعْرِ
وقَسَوْتَ إذْ أبقَيْتَنِي في الكَوْنِ أذْرَعُ كُلَّ وَعْرِ
وفَجَعْتَنِي في مَنْ أُحِبُّ ومَنْ إليْهِ أبُثُّ سِرّي[21]

وفي هذه القصيدة اعتمد الشّابي تكرار الفعل " فقدتُ " ستّ مرّات لتسليط الضّوء على شدّة وطأة الفقد ولرسم ملامح نفسيّة بائسة صاحبها ضحيّة من ضحايا الموت:

ففقَدْتُ رُوحًا طَاهِرًا، شَهْمًا يَجِيشُ بِكُلِّ خَيْرِ
وفَقَدْتُ قلبًا هَمُّهُ أنْ يَسْتَوِي فِي الأفْقِ بَدْرِي
وفقَدْتُ كَفًّا في الحَيَاةِ تصُدُّ عنّي كلَّ شرِّ
وفقدْتُ وجْهًا لا يُعَبِّسُهُ سِوَى حُزْنِي وضُرِّي
وفقَدْتُ نَفْسًا لا تَنِي عن صَوْنِ أفرَاحِي وبِشْرِي
وفَقَدْتُ زُكْنِي في الحَيَاةِ ورَايَتِي وعِمَادَ قَصْرِي[22]

وهذا يؤكّد تغيّر نظرة الشّابي إلى الموت وتحوّلها من نظرة تفاؤل تخرج الموت من معانيه الدّلاليّة التّقليديّة إلى نظرة تشاؤم تعيد الموت إلى تلك النّظرة التّقليديّة المتوارثة.

وخلاصة القول إنّ التّكرار في قصيدة " إلى الموت " ساهم بنوعيه اللفظي والمعنوي في رسم ملامح شخصيّة الشابي التي اتّسمت بالاضطراب والسّخط والتّأرجح بين التّشاؤم والتّفاؤل، فعند قراءة القصيدة

ISSN: 2708-4663 DNNLD :2020-3/1128

نعثر على تكرار دالّ على الضّعف والعجز في حياة مليئة بالشّرور والآلام فتدفع الشابي إلى التّشاؤم ورفض الواقع، وسرعان ما نتفاجأ بتكرار آخر دالّ على القوّة والفرح والتّفاؤل يتجلّى بوضوح في حديث الشابي عن الموت ذلك العالم الغامض المنشود الذي يرى فيه الشابي سبيل الخلاص من الحياة التي يرفضها. وقد بنى الشابي قصيدته على هذه الثّنائية الطّريفة المبتكرة التي تتلخّص في ثنائيّة الحياة والموت. ولم يكن التّكرار أسلوبا فنّيا يحلّي به الشابي القصيدة بقدر ما كان إفصاحا عن الانفعالات النّفسيّة المختلفة من حزن وفرح وغضب... وحطّا من قيمة الحياة وإعلاء من قيمة الموت. ويمكن القول إنّ التّكرار في هذه القصيدة كان أداة للتعبير والتّواصل مع الآخر وللكشف عن نظرة الشابي إلى الحياة والموت ولتصوير الحالة النّفسيّة الخاصّة بالشّاعر الرّومنطيقي أبي القاسم الشابي.

ISSN: 2708-4663 DNNLD :2020-3/1128

قصيدة "إلى الموت"

صَبِيَّ الحَيَاةِ الشَّقِيَّ العنيد ... أَلا قدْ ضَلَلْتَ الضَّلالَ البعيدْ
أَتُنشدُ صوتَ الحَيَاةِ الرخيمَ ... وأَنتَ سجينٌ بهذا الوجودْ
وتَطْلُبُ وَرْدَ الصَّبَاحِ المخ ... ضَّبَ مِنْ كفِّ حَقْلٍ حَصِيدْ
إلَى المَوْتِ إنْ شِئْتَ هَوْنَ الحَيَاةِ ... فَخَلْفَ ظَلاَمِ الرَّدَى مَا تُرِيدْ
إلَى المَوْتِ يَا ابْنَ الحَيَاةِ التَّعِيسَ ... فَفِي المَوْتِ صَوْتُ الحَيَاةِ الرَّحِيمْ
إلَى المَوْتِ إنْ عذّبتكَ الدّهُورُ ... ففي الموتِ قلبُ الدّهُورِ الرَّحيمْ
إلى المَوْتِ فالموتُ روحٌ جميلٌ ... يُرفرِفُ من فوقِ تلكَ الغُيُومْ
فَرُوحاً بفَجْرِ الخُلُودِ البهيجِ ... وما حَوْلَهُ مِنْ بَنَاتِ النُّجومْ
إلى الموتِ فالموتُ جامٌ رويٌّ ... لِمَنْ أَضْمَأَتْهُ سُمُومُ الفَلاَةْ
ولستَ براوٍ إذا ما ضمئتَ ... من المَنْبَعِ العَذْبِ قَبْلَ الممَاتْ
فما الدَّمعُ إلاَّ شرابُ الدُّهورِ ... وما الحزنُ إلاَّ غِذَاءُ الحَيَاةْ
إلى المَوْتِ فالمَوْتُ مَهْدٌ وَثِيرٌ ... تَنَامُ بِأَحْضَانِهِ الكَائنَاتْ
إلى المَوْتِ إنْ حَاصَرَتْكَ الخُطُوبُ ... وَسَدَّتْ عَلَيْكَ سَبيلَ السَّلاَمْ
ففي عَالَمِ المَوْتِ تَنْضُو الحَيَاةُ ... رِدَاءَ الأَسَى وقِنَاعَ الظّلامْ
وتبدو كما خُلِقَتْ غَضَّةً ... يَفيضُ على وَجْهِها الإِبْتِسامْ
تُعيدُ عليها ظِلالَ الخُلودِ ... وتهفو عليها قُلُوبُ الأَنامْ
إلى المَوْتِ لا تَخْشَ أَعْمَاقَهُ ... ففيهَا ضِياءُ السّماءِ الوديعْ
وفيها تَمِيسُ عذارى السَّماءِ ... عواريَ يُنْشِدْنَ لحناً بَديعْ
وفي رَاحِهنَّ غُصُونُ النَّخيلِ ... يُحَرِّكْنَها في فَضَاءٍ يَضُوعْ
تضيءُ بهِ بَسَمَاتُ القُلُوبِ ... وتخبو بهِ حَسَراتُ الدُّموعْ
هو المَوْتُ طَيْفُ الخُلُودِ الجَمِيلِ ... ونِصْفُ الحَيَاةِ الذي لا يَنُوحْ
هنالك خَلْفَ الفَضَاءِ البَعيدِ ... يَعِيشُ المَنُونُ القَوِيُّ الصَّبُوحْ
يَضُمُّ القُلُوبَ إلى صَدْرِهِ ... ليأسوَ مَا مَضَّها مِنْ جُروحْ
ويبعثَ فيها رَبيعَ الحَيَاةِ ... ويُبْهِجُها بالصَّباحِ الفَرُوحْ

ISSN: 2708-4663 DNNLD :2020-3/1128

أبو القاسم الشابي، *الأعمال الكاملة*، ج 1، أغاني الحياة، ص ص. 111- 113، الدّار التّونسيّة للنّشر، تونس، أكتوبر 1984.

المصادر والمراجع

- ابن جنّي أبو الفتح عثمان، *الخصائص*. تحقيق محمد علي النجار، دار الكتاب العربي، بيروت، د. ت.
- ابن منظور محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين، *لسان العرب*، دار صادر، بيروت، لبنان، ط 4، 2005.
- الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر، *البيان والتّبيين*، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1998.
- سيبويْه أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، *الكتاب*، تحقيق وشرح: عبد السلام محمّد هارون، دار الجيل، بيروت، ط1/ د ت.
- الشّابي أبو القاسم، *الأعمال الكاملة*، ج 1، الدّار التّونسيّة للنّشر، تونس، أكتوبر 1984.
- المسدّي عبد السلام، الأسلوبيّة والأسلوب، الدّار العربيّة للكتاب، تونس، ط 3، 1973.
- ميلاد خالد، *الإنشاء في العربيّة بين التّركيب والدّلالة*، نشر مُشترك بين جامعة منّوبة والمؤسّسة العربيّة للتّوزيع، تونس، ط1، 2001.

---

[1] انظر مرثيّات الخنساء وخاصّة قصائدها التي رثت فيها أخاها صخرا معبّرة عن تفجّعها ومعدّدة مناقبه.

[2] اعتبر كل من طرفة بن العبد وعنترة بن شداد الموت عدوّا لا يمكن هزمه إلاّ بالشّجاعة والفروسيّة والخصال التي تخلّد ذكر الإنسان بعد موته.

[3] ربط زهير بن أبي سلمى الموت بالحكمة فكشفت قصائده عن نفس حكميّ في تناول الموت، وذلك في إطار ثنائية الحياة والموت، والدّعوة إلى التّزوّد بالخصال التي تخلّد ذكر الإنسان بعد موته.

[44] انظر خمريّات أبي نواس وزهديّات أبي العتاهية.

[55] انظر مثلا كتابات جبران خليل جبران وميخائيل نعيمة وعلي محمود طه.

[6] *الأعمال الكاملة*، ج 1، أغاني الحياة، "إلى الموت"، ص ص. 111 . 113."

[7] سيبويه، الكتاب، ج 2، ص. 360.

[8] الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر، *البيان والتّبيين*،ص. 105.

[9] ابن جني،. أبو الفتح عثمان، الخصائص، ج 3 ص ص. 102-104.

[10] عبد السلام المسدّي، الأسلوبيّة والأسلوب، ص ص 204، 205.

[11] الإنشاء في العربيّة بين التّركيب والدّلالة، ص: 484.

[12] عبد السلام المسدّي، الأسلوبيّة والأسلوب، ص. 40.

ISSN: 2708-4663 DNNLD :2020-3/1128

[13] إلى الموت x 9 (العنوان والأبيات 4، 5، 6، 7، 9، 12، 13، 17)، في الموت x 2 (البيتان 5، 6)، فالموت x 3 (الأبيات 7، 9، 12)، في عالم الموت x 1(البيت 14)، هو الموت x 1 (البيت 21).

[14] تكرّرت كلمة "الحياة" 9 مرّات وذلك في الأبيات: 1، 2، 4، 5 (x 2)، 11، 14، 21، 24.

[15] جاء في لسان العرب: " الموت: السّكون، وكلّ ما سكن فقد مات". ج: 13، 14، ص: 148.

[16] نستحضر هنا ما ورد في لسان العرب من شرح معجمي لهذه الكلمات:

ـ "الرّدى: رديَ: الرّدى: الهلاك، رديَ بالكسر من رديَ، يردَى ردًى: هلَكَ، فهو ردٍ. والرّدي: الهالك، وأرداه الله وأرديتُهُ أي أهلكته." ج 5، 6، ص: 140

ـ المنون: الموت لأنّه يمُنُّ كلّ شيء يضعفه ويُنقصه ويقطعه... والمنون المنيّة لأنّها تقطع المدد وتنقص العدد." ج: 13، 14، ص ص: 134، 135.

[17] ـ جاء في لسان العرب: "الحياة: نقيض الموت... الحيّ كل متكلّم ناطق.ج 3، 4، ص: 292، 293".

[18] جاء في لسان العرب: "الوجود: وجد مطلوبه والشيء يجده وجودا.... وجد الشيء من عدم فهو موجود... ج 15، 16 ص: 156، 157".

[19] ـ جاء في لسان العرب: "الدّهر: الأمد الممدود وقيل الدّهر ألف سنة... الدّهر الزّمان الطّويل ومدّة الحياة الدّنيا... قال ابن سيدة: وجمع الدّهر أدهر ودهور...الدّهر عند العرب يقع على بعض الدّهر الأطول ويقع على مدّة الدّنيا كلّها... وقال الأزهري: أراد بالزّمان الدّهر. الجوهري: الدّهر الزّمان. ج 5، 6، ص: 313، 314".

[20] فقد والده في سبتمبر 1929، ونظم هده القصيدة في 1 أكتوبر 1929، وقد صدّرها بمقدّمة ذكر فيها أنّها قصيدة في رثاء والده: "هي صرخة من صرخات نفسي المملوءة بالأحزان والذّكريات، وشظيّة من شظايا هذا القلب المحطّم على صخور الحياة، قلتها في أيّام الأسى التي تلت نكبتي بوفاة الوالد، رحمه الله." (الشابي، *الأعمال الكاملة*، ج 1، أغاني الحياة، ص. 137).

[21] *الأعمال الكاملة*، ج 1، أغاني الحياة، "يا موت"، ص. 137.

[22] *المرجع السّابق*، ص. 139.